الثقافة الدولية

تمثّل الدولة الحضن القانوني والسياسي للفرد، والإطار الذي يحميه بعلاقة «الحقوق والواجبات». يقول جاك دونديو دفابر: «إنّ لفظة الدّولة تثير بادئ ذي بدء فكرة السّلطة، السّلطة الفعّالة والمحمية والمنظمة. إنّ الدولة هي نوع من التنظيم الاجتماعي الذي يضمن أمنه وأمن رعاياه ضدّ الأخطار الخارجية أو الداخلية»[١٠] وحينما نغوص في معنى واجب الدولة نحو الأشخاص فإننا نجد أن من ذلك حماية المواطن من الأخطار التي تمسّ هويته التي هي هويّتها، وهنا تظهر المفارقة بين الدول الديمقراطية الغربية التي تفتح باب «التثقيف» لكلّ صاحب فكرة والدّول الخليجية المحكومة بأعرافها وبدينها والتي تجعل عملية التّثقيف عملية جارية وفق التوجّهات الثقافية للدولة.. بالأمس ١٣ شوال ١٤٢٠هـ ١٩ جانفي ١٩٩٩م استمعت في إذاعة أجنبية إلى إلقاء القبض في السعودية على مجموعة من المسيحيين الذين ضبطوا وهم يقيمون احتفالات وطقوس مسيحيّة، وآنذاك فالمعنى أنّ الدّولة ذات الثقافة المعيّنة يجب أن تؤطّر عملية التثقيف في المستويات الشعبية (الرعية) بما يتماشى مع ثقافتها الرّسمية المعلنة.

يقول الفيلسوف الألماني فيخته «Fichte»: «ليست الدّولة سوى التربية المستمرّة لبني الإنسان». وفي مقدمة دستور فرنسا لعام ١٩٤٦ نجد «أن تنظيم التّعليم العامّ والمجاني والعلماني بجميع درجاته يعتبر واجباً من واجبات الدولة» يقول جاك دونديو: «إنّ هذا الواجب ذو طابع مزدوج: فهو يهدف بادئ ذي بدء إلى تأمين الثقافة العامّة»[١١].

إننا هنا نتساءل: هل يمكن لسياسة رسمية ما تبنّت منهجاً ما أن تحدث تغييراً جذرياً في ثقافة شعبها..؟ إنّ هذا التساؤل يذكّرنا بما قاله والرشتاين[١٢] Wallerstein مدير «مركز فرناند برودل لدراسة الاقتصادات» نظرة منظمة إلى تاريخ العالم الحديث ستظهر لنا إنّ الدولة، وتقريباً في كلّ حالة، سبقت الأمة، وليس العكس[١٣] ويطرح الكتاب الذي شارك والدشتاين في تأليفه ايتني بالبار مدرّسة الفلسفة في جامعة باريس الأولى التساؤل حول: كون الأمم موروثة أم مبتدعة أو متخيّلة؟ وواضح جداً معنى أن تكون الأمم موروثة أم مبتدعة، أما كونها متخيلة فالمقصود بها: هي متخيلة لأن أعضاء حتّى أصغر الأمم لن يعرفوا أبداً الأعضاء الآخرين في أمّتهم، ولن يقابلوهم أو حتى لن يسمعوا بهم، ورغم ذلك تعيش في عقل كل عضو منهم صورة صلتهم الحميمة.. فيجب إذن تمييز الجماعات بعضها عن بعض، ليس بأصالتها الزائفة، بل بالأسلوب الذي يتمّ تخيّلهم به[١٤].

إنّ زعم أنّ الدولة سبقت الأمّة زعم باطل لأنّ الأمّة لها متعلّقاتها الجنسية والعرقية التي وجدت ملازمة لشكلها البسيط في غابر الأزمان قبل ظهور مسمّى الدّولة التي ظهرت في زمن لا يعتبر قديماً جداً.

يقول جاك دونديو: «إنّ لفظة الدّولة ليست قديمة جدّاً وأنّ معظم الأفكار التي تثيرها - كفكرتي السّلطة والنظام - ترجع مع ذلك إلى الدولة اليونانية والإمبراطورية الرومانية»[١٥] [١٦] إنّ الأمّة تسبق الدّولة، والآن نلاحظ في بقايا الاتّحاد السّوفياتي أنّ الأمم المختلفة التي كان يضمّها بدأت تبحث لها عن تكينن متميّز تقيم به دولها الذاتيّة بناء على هوياتها، كما تبحث جماعات ثقافية كثيرة في العالم قائمة كأمم عن الانفصال عن الكيانات والدول الكبرى لإقامة دولها الممثلة لثقافاتها.. إنّ الأمم كما قلت محكومة بانتماءاتها التاريخية المتمثلة في التراث والأصول وغير ذلك، هذه الأمور لا تقبل التغيّر ولو بسلطة دولة ما.. وآنذاك فلا يمكن الحديث عن صناعة الأمم بالدّول.. إنّ الاتحاد السوفياتي ولعقود مثّل دولة بإيديولوجية معيّنة (الشيوعية)، و لم تستطع هذه الدولة أن تصنع أمّة سوفياتية، وبعد الانفجار رجعت الأمم إلى أصولها.. كما إنّ أحداث الطائفية في مصر وفي ماليزيا ولبنان وغيرها كلّها أدلة على أنّ الدّولة لا تصنع الأمّة،وأن الفرد في الدولة يبقى محكوماً «بالهوية المشتركة» Lidentite communautaire والتي يرى دوركهايم أنّها

أحد كائنين موجودين في داخل الإنسان، أقصد الكائن الاجتماعي والكائن الفردي.

ومعروف أنّنا حين نتحدث عن الهوية فإننا نقصد الهوية الحقيقية لا تلك «المظهرية الشكلية» Identite de Facade والتي هي نمط من أنماط التفاعل وطقوسه المطلوبة من طرف المحيط أو النظام السياسي المغاير..

إنّ التمظهر بمظهر الغرب والذي بدأ المجتمع الخليجي يتعرّض له، إنّما هو تمظهر لا يعكس الهوية الحقيقية. وهو تمظهر مقترن في أغلب الأحيان بعنصر الشّباب وإذن فهو تعبير مرحلي سرعان ما يزول عند زوال نقطة الضعف التي تستجيب للغرائزية المستفيدة من المادية، وهي الشباب.. إذ سرعان ما يعود الفرد إلى حقيقته لتنسجم صورته المظهرية مع جوهره مع تجاوز مرحلة الشباب. إنّ حركة «الخنافيس» في الغرب لا تعدّ ظاهرة اجتماعية معبّرة عن ثقافة معيّنة أو تمظهر وتشكّل لهوية واعية يمكن أن تضمّ الصّغار والكبار، الأطفال والشيوخ، الأغنياء والفقراء بقدر ما هي صرعة لا ثقافية مظهرية غير دائمة، أو هي بالأحرى تعبير آني عن الذات.. إنّ التحدث بالإنجليزية، أو لبس الضيّق والتخلّي عن الأصيل و.. و.. كلّ ذلك عبارة عن هوية ظاهرية لا عمق لها إنّها لباس مسرحي لدور ما دون

أن يكون الممثل المقلّد (بكسر اللام) هو الشخصية المقلَـــدة (بفتـــح اللام) ويمكن أن نذكر في هذا الصدد ردود الفعل «الهيبيّة» في أعـــوام الستينيات التي استهدفت القيم الثقافية للعالم الرّاشد. ومن ثمّ حركات البيبس (Babas) والبينكز (Punks) ثمّ حركات النيووايـــــف (New. Wave) في الثمانينيات التي أبدت عروض التهكّم والسّخرية من عـــالم الرّاشدين وذلك حين يقلّد «النيووايف» بعض الجماعات الاجتماعيـــة بشكل دقيق تضع جماعات «النيووايف» مخططات سلوكية محدّدة من أجل تصنّع موقف فئة اجتماعية أو مهنية معيّنة، فأحد الشباب يذهب على سبيل المثال إلى تقليد موظف مكتـــب تقليـــدي في ســـنوات الستينيات وذلك بارتداء بذلة رمادية ضيقة مهترئـــة وربطـــة عنـــق ونظارات مدوّرة من الحديد، وقميص ذو ياقة بالية، وسترة زرقـــــاء بحرية، وقبعة متحرّكة وخطوات هادئة. وقد يلجأ إلى إعطاء صـــورة أخرى لرجل تكنوقراطي: بذلة سوداء داكنة مكوّنة من ثلاث قطـــع نظّارات كبيرة ومعطف فاخر داكن اللون، ومحفظة من الجلد الأسود، ثمّ حذاء أسود ذو أربطة... الخ[١٧].

إنّ الأنظمة الرسمية في الخليج لا تمارس عملية تأميم ثقافي بل هي في أغلبها تدعّم المعطى الثقافي للشّعب.. كما نلاحـــظ أنّ المملكـــة العربية السّعودية لا تمثّل بدعوتها السلفيّة تنميطاً قسريّاً للشّعب، بقـــدر ما تمثّل إشباعاً فطريّاً للنّفس البشرية التي تجد انسجامها مـــع الدّيـــن

الصّافي البعيد عن نتوءات الابتداع والشرك وهي لذلك تمثّل معلماً ثقافياً في المنطقة في مسألة «ثقافة الدولة» أو «الثقافة السياسية» كما يعبّر عنها البعض.. ولعلّ دول الخليج بتمثّلها الديني استطاعت أن تنقض النظرية الاجتماعية القائلة أنّ «الصحراء لا تمنع الإنسان من الارتقاء من مرتبة الوحشية إلى مرتبة البربرية أو الجاهلية، ولكنّها تمنع الثقافة العمرانية»[١٨] والقائلة أن: «البيئة الوحيدة الصّالحة لتكوّن الدّولة الدينية العامّة هي بيئة القبائل اللاعمرانية»[١٩] باعتبار أنّه «لمّا كانت الجماعات الفطرية عموماً واقعة تحت تسلّط التصوّرات الخارقة (الدينية) كان الدّين العامل الوحيد الذي يمكنه أن يوجد مركزاً مشتركاً للقبائل، كما نجد مكة قبل الإسلام وبعده»[٢٠].

إنّ هذه النظرية التي ترسم التناقض وعدم التعايش بين الدينية والعمران قد تخدع البعض لكون التقدّم والتكنولوجيا وطغيان المدنية المادية أمور تضعف الدين عند الأفراد والجماعات، وبالعكس فإنّ التدين يزهّد فيها.. ولعلّ هذا يصلح مع النظر إلى الدّين كشريعة مبنية على الجمود على التقليد. وعقيدة قائمة على الخرافة، أمّا في دول الخليج فإنّ ظاهرة التديّن متأثرة كثيراً بدعوة محمد عبد الوهاب والتي قامت على دحض الخرافة ومحاربة الجمود على التقليد. إنّ أزمة الحضارة مرتبطة بأزمة التدين وبفكرة «موت الآلهة» فعندما تموت الآلهة أو تُتجاوز (بفتح المثناة الفوقية الأولى) تتعطّل العبادة المصروفة

إليها وبالتالي ينعدم التوازن بين الجانب الروحي والجانب المادي في المجتمع، وتبقى الحضارة عبارة عن معادلة ترابية = إنسان + مادة = حضارة والإنسان بدون جانبه الرّوحاني المتعلّق بالسّماء مجرّد تراب، والمادة تراب، لذلك كان الناتج وهو الحضارة تراباً أيضاً ترابا خالياً من جانبه الرّوحاني الخلقيّ، وهي التي يسمّيها بعضهم بالحضارة الصناعية والتي يقول إليكس ميكشيللي عن إنسانها: «تؤكّد مختلف العوامل النفسية والاجتماعية والثقافية أنّ إنسان الحضارة الصناعية لم يستطع أن يصل إلى الإحساس بالأمن الوجودي securite ontologique وهو الإحساس الذي يشكّل منطلق الثقة بالنفس، فإنسان اليوم يعيش أزمة معاناة وجودية خالصة. وذلك يشكّل عملياً المحرّك الأساسي لهزيمة الإنسان المسبقة: نمو متسارع لاحتياجاته ونموّ سرطاني لفردانيته واحباطاته الدّائمة»[٢١]. ومن واجب الدّولة في الخليج في الهجمة الشّرسة للمادة على المجتمع أن تقوم بامتصاص كلّ مسبّبات الجنوح إلى التشكّل الثقافي الفرعي بتقليد «الآخر» وذلك بمقرّرات تدعّم «الأنا» المحصّنة بالارتباط القيمي التوارثي الزّمني بدل تركها لارتباط لا قيمي مكاني[٢٢] تقليدي.. وهذا يجعل من الواجب ترسيم منتديات ودروس ومقرّرات المواجهة الثقافية لتيارات العولمة الثقافية. إنّ سطحية وشكلية التقمّص لهوية الآخر (الغربي) في دولنا الخليجيّة لا تنبئ عندي إلاّ عن بداية لانفصام اجتماعي يهرب فيه

«الفرد» من «الجماعة» ومن هويتها الشكليّة، وهو هروب جزئي سرعان ما يستعيد الإطار الثقافي الجمعي محدثي هذا النّشاز من الهاربين، بردّة فعل إلى الذّات كتلك الحادثة اليوم في كلّ الجماعات الثقافية والدينية من الهندوس في الهند إلى متطرّفي اليهودية.

obeikandl.com

الهوامش

(١) يرى بعضهم أن مراتب الاجتماع ثلاث وهي: التوحش، فالبربرية فالتمدن.

(٢) Globoloney.

(٣) ص ٢٩ من «من الاقتصاد القومي إلى الاقتصاد الكوني» فصل «مديرو العالم» د. بارنيت ود. مولر.

(٤) لا نسلّم بكون القبيلة صيغة من صيغ الاجتماع البدائي كما يرى بعضهم، بل قد تكون صيغة راقية.

(٥) ص ٥٨.

(٦) انظر التربية والمتغيرات الحضارية في الخليج العربي من كتاب الخليج العربي في مواجهة التحديات ص ٣٦٨.

(٧) يعتبرها وليام جيمس «W-James» ١٩١٠ متميّزة عن «أنا» الاجتماعية و«أنا» العارفة.

(٨) انظر ص ١٤٨ من الهوية لإليكس ميكشيللي.

(٩) ص ١٤٩ - ١٥٠ من الهوية.

(١٠) انظر ص ٦ من «الدولة» لجاك دونديو دوفابر.

(١١) الدولة ص ١٠٠ فصل (الدولة والتربية).

(١٢) عمانويل والرشتاين: اقتصادي ومدير مركز فرناند برودل لدراسة الاقتصادات، ويدرس الأنظمة التاريخية والحضارات في جامعة ولاية نيويورك الحكومية في مدينة بنجهام.

(١٣) انظر كتاب «العرق والأمة والطبقة: هويات غامضة» لعمانويل والدشتاين وأتيني بالبار ص (٨١).

Race, Nation, class – Ambiguous identities.

(١٤) ص ٦ من الكتاب المذكور، وانظر كذلك مجلة «الجديد» في عالم الكتب والمكتبات ص ٦٧ عدد ١٢ شتاء ١٩٩٦م.

(١٥) الدولة ص ٦.

(١٦) اختلفت النظريات في بداءة الدولة هل هي مع بدء الإنسانية أم أنها ناشئة حيثما تظهر الفوارق الاجتماعية، ويرى أرسطو أنها تنشأ بعامل الحياة وتبقى لتحقق الحياة المنتظمة.

(١٧) ص ١٢٠ – ١٢١ من الهوية.

(١٨) انظر نشوء الأمم لأنطون سعادة ص (١٢٤).

(١٩) انظر نشوء الأمم لأنطون سعادة ص (١٢٥).

(٢٠) انظر نشوء الأمم لأنطون سعادة ص (١٢٥).

(٢١) الهوية ص ١٤١ – ١٤٢.

(٢٢) أقصد بالمكاني استنباط القدوة أو النموذج والمثال من إطار مكاني آخر (الغرب) بدل الإطار الزماني الآخر (الأسلاف).

المراجع

- الخليج العربي في مواجهة التحديات.. مطبوعات رابطة الاجتماعيين – محاضرات الموسمين الثقافيين السابع والثامن ١٩٧٤ – ١٩٧٥، مؤسسة الوحدة للنشر والتوزيع – الكويت.
- الدولة – جاك دونديو دوفابر – ترجمة الدكتور سموحي فوق العادة. منشورات عويدات. بيروت – باريس.

  Letat – Jacques Donnedieu deVabres

- نشوء الأمم. أنطون سعادة (الآثار الكاملة الجزء ٥).
- الهوية – أليكس ميكشيللي Lidentite – Alex. Mucchielli

  Presses uniersitaires de France

  وانظر الترجمة للدكتور علي وطفة.
- من الاقتصاد القومي إلى الاقتصاد الكوني. دور الشركات المتعددة الجنسيات لـ: مايكل تانزر – بول سويزي – ستيفن هايمر – سلفادور آليندي – ريتشارد بارنيت – رونالد مولر إليزابيت ليتلييه – مايكل موفيت. ترجمة عفيف الرزاز. مؤسسة الأبحاث العربية.
- العرق والأمة والطبقة.. هويات غامضة لعمانويل والرشتاين وأتيني بالبلر – اديسيون دوكوفيرت – باريس.

  Race, Notion, class – Ambiguous identities etienne Balibar & Immanuel Wallerstein.

- مجلة «الجديد» في عالم الكتب والمكتبات. الصّادرة عن دار الشروق للنشر والتوزيع عمّان عدد (١٢) شتاء ١٩٩٦م.